جنوني بالمحجبة

قصة

عبد الله خديم

المثقف
للنشر والتوزيع

المثقف للنشر والتوزيع
نوع العمل: قصة
اسم العمل: جنوني بالمحجبة
اسم المؤلف: عبد الله خديم
تصميم الغلاف: عبد الرحمان بوحادة
رقم الإيداع: 2018/ السداسي الأول
الترقيم الدولي (ISBN) : 978 -9931 – 689 -48 -5
الناشر / دار المثقف للنشر والتوزيع
المدير العام / سميرة منصوري
هاتف / فاكس 033 85 65 75 06 75 49 73 86
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني:
www.elmmothakef.com

الطبعة الأولى 1439 هـ - 2018 م

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

في لحظة ما، من العام 2010 ، في إحدى جامعات قسنطينة، يحاول الشاب " رابح " أن يتناسى تجارب حصلت معه في فترة الدراسة الثانوية، خاصة وأنه يرى أن عقله قد نمى عما كان عليه منذ ستة أشهر مضت، كانت لحظاته آنذاك مفعمة بروح الشباب، يرى أن كل عسير بالمثابرة والاجتهاد يسير وسهل المنال، يحاول كسب أصدقاء وطنيين بعد أن ألف أولئكم المحليين بنو قريته الصغيرة المتواضعة، سعيد بامتلاكه غرفة خاصة هو السيّد فيها، بعيدا عن السلطة الأبوية، في منأى عن البرامج العائلية، بمعزل عن كل الضغوطات التي كانت قد تشكل حاجزا أمام بناء الذات كما يسميها هو .. له تجارب عديدة في فترة دراساته الثانوية ويحكي منها الكثير: فتارة تكريم الأساتذة له بصفة خاصة، وتارة طرده من المؤسسة بسبب التأخر الدوري المتعمد في مجمله، وتارة حواراته الصارخة مع مدير المؤسسة والمتعلقة في جوهرها حول فكر في حد ذاته، تشاجره مع معتادي " طريق الليسي " وهلمّ جرّاً، كلّها مواضيع ذات الأثر البالغ في حياة هذا الشاب الطموح المثقف، يهتم لأمر أمته وشعبه، غيور على وطنه وله كلّ الأدلة الدامغة للدفاع عن مصداقية الثورة وانجازاتها الجسام، متعاطف مع

القضية الفلسطينية أكثر من أي قضية ذائعة الصيت، له ارتباطات تجارية، فبين الفينة والأخرى يستقبل مكالمات من ربّ عمله يسأله من خلالها عن المتجر الذي يشتغل به فترات العطل، وله قصة حب أو بالأحرى محاولة حب فاشلة يحكي عنها أغلب مداخلاته عند اجتماع الزملاء في الغرفة التي يُطهى فيها الشاي بعد العشاء، قصة تلخيصها أنه أحب فتاة وأراد خطبتها خلال السنة التي كانا يحضران فيها لامتحانات الباكالوريا، ورفضت هي ذلك قطعا لا لسبب دراسي، ولكن لـ" ضعف في شخصيتها " كما يرى رابح، وما يثير غضبه واشمئزازه هو عذر رفضها والذي نزل عليه كالصاعقة: " مازالني صغيرة وحابة نعيش حياتي " ..

رابح كان قاب قوسين أو أدنى من متأكد بالقبول واصطدم بجدار الرفض اللعين فهو في معزل عن الأنثى وغير مقتنع بوجود أنثى أخرى قد تستهويه بعد " هاجر "، ويفنّد أي خبر مفاده وجود الصالحات اللواتي لا يفضلن سوى الزواج وهو قول فيه قول، لكن لم نقس على صديقنا بحكم أن جل كلامه كلام غضب والغاضب للسفيه سيان ..

ننهي بفضل الله تلك السنة ونعود أدراجنا لسرتا آيبين، للعلم طالبين، لم تتغير تشكيلة الدفعة، تغيّر محسوس نوعا ما مسّ

أساتذة المقاييس، مرغوب في بعضهم، ومتخوفون من ثلثهم بحكم المناصب الإدارية السامية التي يتقلدونها داخل هرم الجامعة، فمصاحبتهم هاجس، ومعاداتهم هاجس أكبر، وما بين ذاك وذاك تمنى كل طالب جامعي التموقع، خلال هذه السنة: يبدأ شريكي في الغرفة رحلة بحث عن سيرة وأصل وكل ما يتعلق بزميلة لنا في المدرّج، خلوقة، متحجبة، لها على محياها نور ما دونه نور، حافظة للكتاب الأعظم، مواظبة ومنضبطة، لكن طرق الوصول إليها والتخاطب معها مليئة بكل ما استعصى من معوقات، كيف لا ونحن لم نسمع صوتها منذ رأيناها ترتاد الجامعة، ثم إننا لم نلحظها في مكان غير ثلاث: المدرج أو المكتبة المركزية أو المصلى الخاص بالطالبات، ورابح لا يكاد يتحمل الثواني، يريد أن يملي عليها كلاما يرى انه سيقنعها، لكننا نصحناه بعد سماعه منه أنه لا يزيده إلا بعدا منها ومما يصبوا إليه معها ..

قصة رابح بين يديك .. ومعاناة رابح في مرمى عينيك .. لك الموقع ولك التاريخ .. لك الظروف ولك المعيقات .. فقط أقرأ عني هذه السطور .. لكن قبل القراءة أريد منك صنع معروف شخصي لي : إن كانت قد فاتتك صلاة فقم لها وعد، وبعد العودة إن أنت قمت،

لك أن تغمض عينيك دقيقة وضع لك فرضية لنهاية القصة ثم تابع قراءتك ..

يقول رابح :

عند خروجي من المدرج من باب الذكور، قصدت النادي لاقتناء كوب قهوة بعد أن اشتبكت عروق رأسي إثر تلك المحاضرة الدقيقة العميقة عمق المحيط الأطلسي، وعند باب النادي، عند الصندوق لمحت عيني أختاً ذات وقار وشموخ وأنوثة لم أفهم سبب اجتماعهم فيها، فخلت لوهلة أنني رأيتها من قبل، ثم كففت عيني عنها، وبدل القهوة وجدت فمي قد طلب لنا " نعناع "، ثم احترت في أمري بين أخذ النعناع بدل القهوة أو أخذهما معا، وبينما أنا أقرر أيهما يرافقني إذ طلع عليّ فلان ـ يسمي شخصا نعرفه ـ ، فأتممنا ما أردناه من دخولنا للنادي وخرجنا سوية للمدرجات، عند دخولي للمدرج من جهة الإناث برفقة الأستاذ المحاضر، أرى الفتاة عينها بالسطر الأول من المدرج، فيختلط علي الأسود بالأبيض لأجد نفسي طوال تلك المحاضرة حاضرٌ بدنيا، غائبٌ ذاتيا، تائه ولا أعرف أين، لأترك الجامعة عند نهاية المحاضرة وأعود إلى الغرفة لعلي أرتّب أفكاري، لكن دون جدوى ..

- وهل تركت المحاضرة الثالثة يا رابح ؟

- نعم تركتها .. والله لم أع ما جرى حقيقة كأن الروح قد طارت، لا أدري ما الذي حصل ..

حسن .. حسن .. سقط رابح فيما ظن أنه ناج من السقوط فيه .. كيف لي أن أعرف عنها المزيد .. هل لك من قريب أو بعيد يعرف عنها ولو القليل .. أريد أن أعرف ماهيتها فقط .. لا أظن أن أوضاع أسرتها تهمني .. طبعا لا بد من معرفة أبيها وماضيه .. أو ربما هي من إملاءات الشيطان .. دعنا من هذا الموضوع إطلاقا ..

يتناسى صديقي أمر الفتاة ثلثي الأسبوع، والثلث الثالث منه يعاني فيه الأمرين (خلال أيام المحاضرات)، له من الكَلِمِ ما يعجز عن فهمه فطالحة الأدب والفكر .. وله من التساؤلات ما تكل أطراف الموثقين والباحثين عن إجاباتها .. وبالمقابل له من الطموح والإرادة للظفر بها زوجة، بقدر ما يدخل المريد لثلاث مداخل .. إما السجن .. أو مشفى الأمراض العقلية .. أو قفصا ذهبيا إن صدقت رؤياه ..

يقول رابح:

وتتوالى الأيام، وأنا أبحث لها عن ثغرة لفتح باب الحوار، وتأتي فرصة العطلة الشتوية، لتفتح الأستاذة المحاضرة حوارا مضمونه

اغتنام فرصة العطل لبدء التفكير في موضوع مذكرة التخرج، وراحت تسأل كل الطلاب عمن لديه فكرة مسبقة عما هو بصدد اتخاذه كموضوع عام لمذكرته، وأنا لا أحبّذ أن يتراءى للأستاذ بصفة عامة أن مستوى الطلبة متدني، أو ألّا فكرة للطالب حول موضوع مذكرته إلا بعد إرغامه على موضوع ما، رفعت يدي بغية إثراء روح النقاش ومحاولة كسب معلومات قد تكون القاعدة لبناء خطة بحث مسبقة، سألتني المحاضرة: هل لك موضوع جدّي بنية جازمة؟ قلت نعم يا أستاذة وهو: الربا بين الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي .. تضحك الأستاذة ضحكة تفاؤل وتشير إلي بقلمها الذي لم أر مثله في مكتباتنا خاصة وأنها تدعي أنه هدية من رئيس مخبر علمي في جامعة الأزهر، وقالت لطالما قلت لك أنك تحب التميّز صحيح ؟ قلت بلى صدقت، ولكن كيف ترين لي الطريق الأنسب لأباشر العمل؟ .. قالت الموضوع بحاجة إلى مجموعة تتكون من طالبين فأكثر لأن مادّتك العلمية كالبحر المسجور.. ونحن نتبادل أطراف الحديث ترفع السيدة الكتوم يدها تريد الكلام .. يااااااه لا يعقل ذلك .. قمت بإرسال كل قِوَى أذنيّ للسطر الأول من المدرج ورغم ذلك لم أسمع إلا ختختة يتخيل لك أنها قيلت خارج الجامعة، لم أتمالك نفسي وصحت بنصف صراخ

.. لم أسمع شيئا يا أستاذة .. المدرج بأسره يدير أعناقه نحوي وتجيبني الأستاذة بكلام ممزوج بالكثير من القهقهة : ماذا حلّ بك يا بني .. زميلتك قالت إنها كانت تفكر في الربا من الناحية الشرعية فقط ولم يخطر ببالها المزج بين الشرع والوضع في مذكرة واحدة مثلك.. فهي يا بني لا تقلّدك .. لا تخف، لا تخف .. وأردّ أنا بسرعة البرق : أبدا يا أستاذة بل بالعكس فبكلامها هذا أكون قد كسبت عضوا جديدا في مجموعة العمل التي نصحتني بها مادامت ذات رغبة في الموضوع .. الأخت تبتسم لماذا ؟ يجيبني صديقي أعد كلامك تفهم بسمتها .. ماذا قلت أنا؟؟ " أكون قد كسبت عضوا جديدا في مجموعة العمل التي نصحتني بها مادامت ذات رغبة في الموضوع " آآ يا حسرتاه على سوء نطقي وقلة حيلتي وسوء فهمكم ..

أيام بعد ذلك .. أجوب أجنحة المكتبة لأستعير كتبا قبل الذهاب إلى البيت لإتمام بعض البحوث التي اقترب موعد استحقاقها .. وهي مكروهة لدي لكثرتها .. ولكي أصل للرفوف المخصصة للذكور لابد لي من العبور على بنك الإعارة الخاص بالإناث، عندما دخلت لقاعة الرفوف اكتشفت أنني نسيت الأوراق والقلم داخل المحفظة التي يحتفظ بها الأعوان عند مدخل المكتبة، عدت عبر

الرواق وإذا بالهاجس قادم، وضعت عيني على البلاط الذي اكتشفت لونه لأول مرة حينها، عند اقترابي منها ببضعة أمتار سمعت صوت أنثى يدوي في قصبة أذني ناعما صارخا بريئا بعض الشيء .. رابح .. رابح .. رفعت رأسي وإذا بها الأخت تناديني .. صه هل أنا في منام .. أووه هي تعرف إسمي ؟؟ أستجمع قواي الفكرية بعد أن تشتّت التفكير وتكاثرت وتولّدت التساؤلات والتكهّنات والاحتمالات بشكل رهيب.. نعم مرحبا أيتها الأخت الفاضلة .. كيف أخدمك ؟ .. عفوا أخي ولكنني قد أتسبب لك بالإحراج لذلك سأختصر: إنا بصدد السفر إلى " البلاد " ولابدّ لي من أخذ بعض المراجع لإتمام بحث الدكتور فلان لأنك تعلم أن أول حصة بعد العطلة سألقي فيها البحث ولازلت لم أبدأ بعد، لذلك أنا بحاجة لعدد كبير من المصادر والمراجع ولم تكفني سعة بطاقتي بحكم استعارتي لخمس كتب كاملة، فهل يمكنك استعارة باقي الكتب من أجلي ببطاقتك؟ .. أجيبها من باب الدعابة .. إعطني صورتك أجعلها مكان صورتي وخذي البطاقة .. ولكن ربما لم يبق لي سوى حجز واحد بمعنى كتاب واحد، لذلك عليك اختيار أحد الكتب المتبقية وسأستعيره لأجلك .. هل قائمة المراجع معك ؟ تجيب وهي ترتجف وتبحث في محفظتها .. نعم نعم كانت الورقة هنا .. ربما

هي هنا .. آه هي هنا وتخرج المصحف الشريف من المحفظة بعد أن جعلت الورقة عند آخر صفحة كانت تقرأها وقالت: صبرا عليّ ريثما أجعل مكانها ورقة أخرى لكي لا يضيع وقفي .. سلمتني الورقة وسلّمت لها قلبي حينئذ .. أمرتها كما لو أنني آمر زوجتي بالجلوس في القاعة لمدة ربع الساعة ثم ملاقاتي عند مخرج المكتبة .. ذهبت هي، ونظرت لورقة مراجعها فوجدت ما يربوا عن العشرون مرجعا كانت تريد استعارتها .. سأجعلك تنبهرين من قدراتي الخارقة وإلا لماذا أنا طالب بهذا الصرح العظيم .. الهاتف المحمول به رقم شخصية مهمة لا يُردّ عنده سائل خاصة إذا تعلق الأمر بالتحصيل العلمي وبالخصوص في الشق المتعلق بالإعارة .. السلام عليك يا أستاذ ..يردّ " أهلا بطالبنا الخلوق البشوش المثابر ابن صحرائنا الذهبية " .. آه .. المقدمة جميلة لابد لي من اغتنام الفرصة .. والله يا أستاذ أردت أن أسألك سؤالا لي به حاجة كتلك الحاجات التي تحبون أنتم أن تكون موضوع التحاق أي طالب بالجامعة .. يقول " مرحبا بني مرحبا .. إن كان ينقصك مصاريف السفر فأنت تعرف .. بيننا عهد .. "، أقاطعه .. لا لا أبدا يا أستاذ وإنما أحتاج بعض المراجع من المكتبة وقد أضعت بطاقتي ولابد لي من الاستعارة الآن لأنني مسافر الليلة .. يقاطعني " هل أنت الآن

بالمكتبة ؟" أجيبه أجل يا أستاذ .. ينهي المكالمة على وقع " أنا قادم إليك " .. يأتي مصدر إلهامي في الجامعة شخصيا، يدخل معي نحو أعوان الإعارة ويشير إلى أحدهم قائلا " أنظر يا أخي فلان .. حين يأتيك إبني رابح ويسألك عن المكتبة المركزية بأسرها، أعطه سُؤله واكتب الكل باسمي شخصيا .. واضح ؟" .. يجيب العون المتواضع " هذا من خيرة رواد المكتبة، وحتى لو لم توصي به خيرا فنحن قد حملناه على درب الرواد المثابرين على المطالعة ولا ندخر جهدا لخدمته " .. قال الأستاذ خذ ما شئت ولي مقابل أطلبه، مددت الورقة للعون والأستاذ قائم على رؤوسنا ونحن جلوس على طاولة المطالعة، قال العون " كلهم ؟" قلت أي نعم .. وما هي إلا عشر دقائق حتى أتى العون وبيده كيس مدجّج بالكتب، شكرت الجميع وخرجت شبه جارٍ نحو الأخت الأميرة ..

لحظات مرّت كالساعات ووصلت الأخت المدللة، تمشي كأنها على عرش بلقيس، مطأطأة الرأس كأنها تحمل أثقالا، عفيفة المظهر كأنها في الحرم المكي تجول، تتكلم بخجل كأنك تسألها الزواج بها ..

- حسن يا " هدى " هاك المراجع كلها التي كتبتها، ولكن هناك إشكال صغير قد طرأ بعد استخراجها .. تقاطعني ..

- هل عاقبوك بعدم إمكانية الاستعارة شهرا كاملا ..
- لا، لا .. أبدا، ولكن من أعانني على الاستعارة هو أستاذ يتقلّد منصبا مرموقا في الجامعة .. وقد طلب مقابل الإعارة شيئا وأنت من تحققيه له .. تقاطعني ..
- لا، لا يمكنني صنع أي معروف لأي كان، أعد الكتب وأنس الأمر واعذرني على الإزعاج ..و ..... أقاطعها
- هوني عليك يا بنت الأحرار .. هوني عليك واسمعي الكلام كله وأجيبي بجزئه .. المعروف ستصنعينه لي لكي لا يتظاهر له أنني كاذب .. والأستاذ لا دخل لك به ولن أخبرك به حفاظا على مصالحي ومصالحه على حدّ سواء .. قد طلب مني مقابل عشرون كتاب، تلخيص خمسة من العشرين، وجعل التلخيصات المنجزة ضمن القاعدة الرقمية للملخصات لإعانة الطلبة على التعرف بالكتاب قبل استعارته .. وبما أن الكتب عندك خلال العطلة ستقومين بتلخيص خمس كتب كردّ لمعروفي لك .. موافقة ؟
- آآآ فهمتك .. والله عذرا وألف عذر .. شكرا جزيلا فلم أتوقع البتة أنني سأغدو بهذا الحجم من الكتب .. شكرا.

- أنت على الرحب والسعة، موفقة إن شاء الله ولكن لو سمحت لي بسؤال وحيد يتيم لا ثاني له ...؟
- قالت: تفضل تفضّل ولو كانوا مائة ..
- قلت: من أي ولاية أنت ؟
- تجيب وجوابها مستور ..ما شاء الله .. مدينة الرجال الأخيار، والنساء الأطهار، والحفظة الصغار، والمجاهدين الكبار، والزملاء الأخيار ..
- تجيب بخجل: يبارك الله فيك .. وأنت ؟
- قلت: بكل شموخ .. ولدت بين الكثبان .. أجدادي شجعان .. الموت والحياة سيان .. لا نرجوا من الذهب الأطنان .. ولا نهاب خيوط الأكفان .. إذا بدأنا لا نخسر الرهان .. وإن انسحبنا فلن تردّنا الأزمان .. المبتغى: عيش كريم وتتويج بالجنان ..
- قالت مندهشة: سبحان الله .. عصر المعلقات قد ولى ..
- قلت: أستسمحك على الثرثرة، سأعود إلى المكتبة لاستكمال بعض الأعمال ورافقتك السلامة واستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه ..

- قالت ضاحكة مستبشرة : الحمد لله الذي جعل لأبي من يعينه على استوداعي الله في إقامتي وترحالي .. السلام عليكم.

.. ذهبت وليتها ما ذهبت .. ذهبت وكبدي بعد ذهابها قد التهبت .. ذهبت والبهجة من عيني ما ذهبت .. ذهبت وورقة مراجعها عن كاتبها قد نابت .. وحروف قلمها في مقلتي قد نبتت ..

تركتها توارت كشمس العشيّ .. وخرجت من الجامعة نحو غرفتي .. لا أذكر من التقيت بهم في الطريق ولا أذكر شيئا سوى أمتعة محزومة وأناس فرحون، كأن العيد قد حلّ بهم .. أصل إلى الغرفة وكل ما بأحشائي يتقطّع أسى وحسرة على عطلة ما كان يفترض أن تكون في هذا الوقت تحديدا .. ولكن لولاها لما كانت قد وقعت " ملحمة الكتب " ..

نصف شهر .. نصف شهر خال من كل ما كان يغمره من نوم وسهر ومتابعة للبرامج وممارسة للرياضة وتنظيم الدورات الرياضية .. نصف شهر كله إحباط وفراغ .. الصلاة في المسجد اللصيق بالبيت .. والعودة للمتجر ثم إلى البيت .. لا أكثر ..

.. بعد صلاة الجمعة الأخيرة من العطلة، تساءلت كيف تكون حال غرفتي بعد نصف شهر من الإهمال والهجرة، بعد أربع ساعات من تساؤلي هذا، وجدت نفسي على متن حافلة ستشقّ طريقها الليلة

نحو الجسور المعلقة .. ما أبهرني فعلا كيف أقنعت أمي بالذهاب قبل يومين عن موعد استئناف الدراسة .. ربما هي قوة خارقة لا علم لي بها ..

عشر ساعات كاملة .. عشر ساعات لا يملأ الجو سوى حركاتها المتقنة، بسماتها النادرة، صوتها الشجيّ، وظلام المحيط يستمد نوره من بريق عينيها، لربما كانت أول صورة جعلتني أحتار حتى أحتاط، أحلم حتى أتحطم، أفكر حتى أتدمر، لا أدري فعلا لماذا سلبت روح الدعابة والفكاهة وغرست بدلهما جدية، إصرارا وتفكيرا معمقا دقيقا لأبعد الحدود.. منذ وقت ليس بقريب، لم أذكر أنني وضعت نصب عيني هدفا جمعت له كل طاقاتي، اللهم إلا ذلك الهدف الذي قد أضيّع حتى فرصة المحاولة فيه ما لم أجعل لهذا البؤس حدّاً معلوم المعالم، ظننت أنني سأعود من سرتا دكتورا في مجالي، لكن لم أحضّر نفسي لأكون مغرما بالصنف الذي لا يمكن مفاوضته في حلبة الحب، صنف ربما لا يؤمن مثلما لا أؤمن أنا بحب ما قبل الاقتران الفعلي المشرّع والمقنن، سأحاول التكتم على هذا البلاء.. لدرء المفسدة قبل جلب المنفعة.. ربما هو الحل الجوهري النموذجي.. وربما سأتكلم معها يوم الأحد، وأشق الطريق نحو البوح والاعتراف.. وما كان فليكن.. نعم.. ربما هو الأريح

والأنسب والأوضح هاهنا .. ولم أذكر بعد كيف ومتى نمت، ولم أتأكّد من نومي من عدمه إلا عندما فتحت عيني لأرى شخصا يهزني يمنة ويسرة أن قم فأنت في محطة جبل الوحش..

قمت وإلى المأوى قدمت، جلست، ولنفسي كوب شاي قدّمت، وحملت الورق والقلم وتقابلا فتصارعا أشدّ الصراع.. في محاولة مني لكتابة ما تقرؤون.. لكن دون جدوى آلاف الأوراق جعلت لها عنوانا واحدا كان ولا زال " الأخت هدى" لكن بعد مضي بضع ليال كان المصير نار تأتي على تلك الحروف فرادى وجماعات فلا تترك منها إلا ذلك الأثر الروحي.. والنتيجة تضاعف درجات حب الأخت هدى وتراجع نسب الضغط لدى رابح حتى تنعدم..

الأحد المشؤوم: ندخل الحجرة ولا وجود للإنارة والإثارة.. الأخت غائبة ولم تحضر بعد.. أسأل عنها؟ وما المانع من ذلك؟ رفيقتها المتبقية ربما لها من الجواب ما يشفي سقام اللبّ..

- الأخت الفاضلة: السلام عليكم..
- بعد تردد: وعليكم السلام. نعم؟
- والله أستسمحك في سؤال حول رفيقتك الأخت هدى.. لم تلتحق بعد صح؟

- صحيح.. لم تلتحق بعد، لها بعض الظروف القاهرة وربما التحاقها قد يكون حتى الأسبوع المقبل.. هل لك من حاجة بها؟
- ظلام وانحطام ثم قلت: لا لا أبدا بعض الفضول فقط، كنت بصدد عرض بعض الأفكار حول موضوع المذكرة ومادامت لم تحضر بإمكاني التأجيل بدل التعجيل.. شكرا لك

وأنا بصدد المضي قدما تقاطعني الرفيقة:

- انتظر انتظر: لازال لي سؤال لو سمحت.. نور الهدى قد استودعتني أغراضا لأخ يدعى رابح.. هل لك أن تدلني عليه..
- بكل سرور: أنا رابح.. هات الوديعة..
- أنت رابح.. حقا أنت رابح؟
- نعم أنا رابح.. أخرج بطاقة الطالب وأطلعها عليها عند ذلك قالت إنها ستذهب لإحضار الوديعة وتحضر..

بعد مدة من الدقائق، تحضر الأخت ولي عندها غرض، أستلمه، سيارة أجرة وإلى الإقامة سارت الأنفاس والخلايا بكل حزم وقلق.. كيف نزلت وكيف دفعت للأجير، كيف فتحت الباب وكيف دخلت، الله أعلم.. الكتب.. تلخيصات فاقت كل التوقعات، كل

كتاب وضع داخله تلخيصه، وأي تلخيص، تلخيص خير من الكتاب ذاته.. مرتبة، مرقمة، اسم الملخِّص أسفل كل تلخيص وهو موسوم باسم رابح.. وعلبتين مترادفتين.. ههه زيت الزيتون وأكلة شعبية.. يا لها من هدية.. وليس وقت الهدية بعد أن غاب الكل وحضر الجزء..

بعدها يلج صديقي وهو متعب.. يسألني كيف وصلت قبله.. أجيبه فيسخط ويغضب عن عدم تبليغه ليرافقني.. بعد هدوئه وترزّنه.. يسألني.. هل رأيت تلك الأخت هدى أو نور الهدى أو لا أدري..؟، تتجحّظ عيناي.. نعم ما بها؟ قيل لي أن عمها توفي بعد حادث مرور .. اللهم لطفك وحفظك.. متى؟ .. بحر الأسبوع الفارط..

يا أسفى على هدى.. يتفطر القلب لذكرها وذكر ما حلّ بها..أقوم للعشاء والصلاة بعده وأعود.. نوما غير النوم المبتغى.. ورؤيا مليئة بالأحزان والكوابيس.. لا نشرع غدا في المحاضرات إلا عند بلوغ المؤشرات التاسعة والنصف وهو في غير صالحي.. ولا يخدم أبدا ما أفكر في صنعه.. وبعد طول انتظار.. هاهي الرفيقة تخرج من إقامتها.. دون مقدمات ودون مدخل:

- السلام عليكم.. الأخت كيف أصبحت؟

- أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم..
- عليه الصلاة والسلام.. أين تسكن هدى بالضبط من فضلك ..؟
- صه.. لم؟
- أريد أن أذهب الآن إلى أهلها لتقديم واجب العزاء.. دلّيني على مقر إقامة أهلها ..
- أيها الأخ الفاضل.. إن أنت سافرت الآن_تنظر إلى ساعة يدها_ ستصل في حدود المغرب، لأنك ستسافر ثلاث مرات من مكان لآخر لتصل..
- لا عليه.. لا عليه..

ترشدني رفيقة الأخت وأول حافلة بعدها كنت على متنها.. بعد بضع ساعات ليست بالقليلة، وصلت.. أسال القاصي والداني عن لقب العائلة مستدلا بالوفاة وقلّ من يعرف..يافع واحد يعرف ولكنه يسألني السؤال المحرج.. من أنت؟ لا أعرفك.. كيف تعرف عمي؟ من أي ولاية أنت..

أعده أنني عند تأدية واجب العزاء سأشرح له.. وفي طريقنا إلى هناك أكتشف أنه أخوها.. واسمه سعيد .. وهو خبر في ظل الظروف الراهنة ليس بسعيد..

طلعنا على جمع من الناس قد جلسوا على كراسي، مدّت أمامهم طاولات العشاء، لا أعرف الأقربين ولا العائلة الفاقدة ولا سن الفقيد.. سألت سعيدا أن يرافقني بتقديمه الأشخاص ذوو حق العزاء.. ابتدأ بأب نور الهدى واختتم بأصغر أعمامه.. يسألني الجميع.. لم نعرفك.. من أنت..؟..

حان وقت الكذب يا شجعان.. أنا رابح من جنوب الجزائر تعرّفت على الفقيد في سطيف وسط.. ذات يوم كنت على شفى جرف هار.. ساعدني ومنحني بعض النقود.. وزادت درجات تعارفنا بعد ذلك.. الجميع يترحم على الفقيد بأسى وأنا لوحدي أسأل الصفح والعفو من الله من زلتّي هذه ..

لم أجب دعوة الجميع من أهلها الأكارم للمبيت هناك.. قصدت شبه فندق.. نمت وسط ضوضاء ما بعدها ضوضاء.. ما الذي أفعل أنا؟.. لا جواب..

أعود إلى الجامعة مطلع الصبح.. وأنهي أسبوعا مشؤوما بكل المقاييس.. منهاج ألفته.. إذهب.. أدرس.. عد لتخلد للنوم..أنتظر أحدا مشرقا غير أحد هذا الأسبوع..

يصل الأحد المشرق.. وهاهي عروس الجامعة تمشي على أخمص قدميها وملامس البلاط ترتخي وتحنّ على وقع ذلك، تصل لباب القسم، تلتفت وتدخل، وكأنها تريد قول شيء، لكنها لا توصل المعنى بعد المبنى، مرات مرات، يدخل الأستاذ وندخل خلفه لرسوخ عقيدة خاطئة اكتسبت من السلف الجامعي، دخلت وجاورت طاولتها ورفيقتها، جلست رفقة شريكي في الغرفة، وبدأ الدرس يلقى على مسامعنا، قلبي أيها الناس.. قلبي لا يمكن احتساب ضرباته ولو بسلم ريشتر,, يكاد يقتلع الفاصل بينه وبينها وينط إليها.. ماالعمل؟ قلّبت أوراق دفتري حتى وصلت لآخر صفحة وكتبت فيها:

بسم الله وصلاة وسلام كاملين متكاملين بلا عدد ولا مدد على خير خلق الله، أرحب بك بالعودة والعود أحمد، عظّم المولى أجركم وأحسن عزاءكم، ورزقكم صبرا يطفوا فوق حب المرحوم.. وأردت أن أغتنم الفرصة لأقول ربما الأولى أن الجامعة بأسرها

اشتاقت لنظراتك، والثانية ما أنفقت عليّ عبر رفيقتك قد فنى ويخلف الله عليك، وثالثا ما شاء الله تبارك الله.

مددت لها دفتري، ونام في جسمي كل ما كان قبل قليل متحرك، كانت تنظر إلي وأنا أكتب بطرف عينها، استلمت الدفتر وفتحت على الصفحة المنشودة مباشرة، قرأت ورفعت رأسها نحو الشارح، عندما أغلق الدفتر دون ردّ مباشر، أغلقت كل الاحتمالات في وجهي وخفت أن يكون كلامي لم يلق قبولا من لدنها، وراح تخميني يزداد وتيرة وتتشعب عناوينه.. غضب وسخط، أو خجل وحياء، أم استغراب واندهاش، عدم مبالاة وإهمال، جس نبض ووزن فكر، ما الذي يجول في خاطرها اللحظة.. الأستاذ يناديني.. تفضل إلى المصطبة.. أقوم وأنا أقرأ ما هو مكتوب على الصبورة لعلي أهتدي لجواب سؤاله الذي لم أسمعه منه.. اعتليت المصطبة.. استدرت نحو زملائي.. وطرح الأستاذ سؤاله.. مارأيك في كتاب ثروة الأمم ومن باب أولى ما تعليقك على فكر آدم سميث؟.. سبحانه الله، يسألني سؤالا لا يقارع جوابه العلماء الكبار.. شكرا سيدي على السؤال.. لو كان السيّد سميث حيّا لحمّلته مسؤولية الخراب الذي ساد العالم منذ 1929 إلى اليوم.. يقف الأستاذ مستغربا.. لماذا ذلك أستاذنا رابح؟..- قهقهة

تثور داخل الحجرة، والمحتشمة تخفض رأسها- ناولني القلم يا سيدي لعلي أستطيع شرح فكرتي التي لا تعكس سوى فكرتي، كتبت على السبورة كلمة " سعر الفائدة" ، وسألت الجميع: ما حكم هاتين الكلمتين في الشريعة الإسلامية؟.. يقاطعني الأستاذ قائلا : نحن بصدد مناقشة الفكرة من الناحية الاقتصادية يا أستاذ رابح لا الشرعية.. شكرا جزيلا لك، تفضّل..

حمدا لله.. أعود إلى مرتبتي ومقر إلهامي، وأطلب منها دفتري، ترفض لوهلة إرجاعه، ثم تستسلم لأمري وتعيده، بمقابل تلك الصفحة الأولى أردت كتابة شيء لكنني وجدت سطورا قليلة مختصرة.." شكرا على اهتمامك، وشكرا على قدومك لتأدية واجب العزاء وإن كان الواجب لا يعنيك، وقد حسبناها لك على محمل شخص كان بحاجة لمصاريف تنقله لبلدته فأعطي سؤله لا أكثر.. إ.." وبقيت الألف يتيمة ولذلك امتنعت هي عن رد الدفتر للوهلة الأولى..

كلامها آلمني جدا، طلبت إذنا بالخروج من الحصة ونلت ذلك، تركت محفظتي هناك وغادرت الحصة إلى نادي الجامعة، جلست هناك أحلل تلك الكلمات.. فلم أجد منها إلا ما مفاده أن لحاقي بها في بيت عائلتها لم ينل لها إعجابا كما أردت له..

بعد أن خرج زملائي كلهم، عدت أدراجي نحو الحجرة وإذا بها واقفة في مكان اعتادت الوقوف فيه دوما.. كأنها تعمّدت فتح حوار.. ما يحمله هذا الحوار .. استر يا ستار .. تقدمت منها بخطوات محسوبة تاركا بيني وبينها مسافة المتر والنصف تقريبا.. وسألتها:

- ماذا بعد الألف؟
- قالت: لام وميم.. ثم غلبت الروم في أدنى الأرض..
- قلت: لا ليست ألف الروم، بل ألف دفتري.. تركتها يتيمة..
- قالت: يُتّمت على يد متسرّع لا يفكر في ما قد يلحق من تصرفاته غير محسوبة العواقب..
- قلت: وهل يعاقب الطيبون على أداء واجبهم..
- قالت: طيبة الذئاب قبل أكل الخرفان..
- قلت: غاب وجه الشبه بين الصفة والموصوف.. فشاب التعبير ركاكة..
- قالت: الركاكة تُفهم أحيانا خير من الإفصاح..
- قلت بلى ولكن غلبت الطيبة طبع كل متطبّع..
- قالت: سمعت الرواية من فم أبي وتحسّر على رابح الصحراوي قبل أن يقدّم له المرحوم يد العون..

- قلت: قدمت واجب العزاء كما لو أنني أقدمه لك.. ولم أكن على استعداد لسؤالهم.. ولم أجد من تعريف يجمعني بك.. فاخترت التورية وغلبتها على الروي.. فما المغضب من ذلك..
- قالت: ليس هناك ما يغضب، لو لم يكن ما يثير الأسف البالغ لحالك.. تصنّعت وتكلّفت في أسلوبك حتى أفسدت الرواية كاملة بتوريتها ورويها وعضدها وكل مبناها..
- قلت مقاطعا: وهل هناك من صيغة قد يكون بها اعتذاري على تلك الخطوة..
- قالت: اعتذرت مكانك.. والتمس لك الجميع عذرا، لكن تركت خلفك شبهة ترسّخت في انتحالك شخصية..
- قلت: ويحك.. كذبتُ وأظهرتِ كذبي؟..
- قالت: كلا.. فكذبك لا يسمن ولا يغني من جوع.. مشكور أنت ومثاب لتلك الخطوات المباركات، ولكن حبّذا لو فصحت عن شخصك بصفة عفوية دون تكلف..
- قلت: لم أعش لحظة من تلك الخطوات.. ولم أذكر شيئا من تلك الرحلة سوى عنوانك.. ذهبت متحمسا، وعدت متحسرا.. وبين الحماسة والحسرة.. تلاشت متعة السفر ولذّته..

- قالت: ثم ما بين سطور تلك السطور.. مبهم إن صدق قصدك محظور..
- قلت: ترحيب بعد اشتياق.. عزاء بعد فراق.. وتعبير على إعجاب خلا من نفاق.. فما المبهم في ذلك..
- قالت: ضع نصب عينيك قاعدة لا تزغ عنها مادمت ستنشق وتأكل.. العلاقات تفسد العلاقات..
- قلت: والتعميم لغة حروفها عقيمة.. فالعلاقات قصص قديمة.. منها الحميدة والذميمة..
- قالت: قصدي واضح.. ولطالما ظل المرء كادح.. على غير الآخرة يكافح.. وعند نزول البلية تتغير الملامح.. تشيع عند الناس الفضائح.. وتتنصل الأعناق من مسؤولياتها وتضيع النفوس وتختل موازين الأنساب..
- قلت: نستعيذ بالله من منكر ونكير.. وما الداعي لبلوغ تلك الدركات الدنيا..
- قالت: حيطة وحذر.. والكيّس من باع نفسه هواها وعمل لما بعد الموت..
- قلت: ومنكم أستفيد.. وعن الطريق بحول الله لن أحيد.. فما الذي تريد..

- قالت: لا أريد سوى حدودا.. وأخا طيبا ودودا..
- قلت: لك ذلك..
- قالت: حان الوقت..
- قلت: لـــ...
- قالت: لدخول الأستاذ.. هيا لتنهل من علم قد ينفعك.. أو تنفع به غيرك..
- قلت في قرارة نفسي.. وأي علم بعد علم حبك هذا؟

تتوالى الأيام ولا حديث لها يتوافق وما أتطلع إليه معها، غير نصح أرى أنه في غير موضعه.. فهي لا تدرك أنني أدرك ما تقوله بالدليل من قرءان وسنة وقول صحابي وأقوال الأئمة الأربعة فيه.. تركتها لعلها تتفطن أنني بصدد قول بضعة جمل قد ترديها قتيلة.. لم أتسرّع لأنني أدق آخر المسامير في نعش التكتم والتراجع..

وكأن إيحاءاتي لها لم تصل بعد.. وكأنني أكتب الصفحات ثم أحرقها.. فهي لم تبادر، لم تحاول فهمي ومع ذلك لم أستسلم، ليست شجاعة ولا قوة، بل لأن الحبّ سكن القلب فما فتئ يطيق فراقها، ما نسي تلك الصورة التي جعلتني أتصور أنني أخاطبها كما لو أنها كانت أمامي، لكنني في واقع الأمر مستلقي على

كتفي وأخاطب الروح دون الجسد: أيا فتاة دعي القلوب تفعل ما فعله قبلنا العشّاق ..أطلقي العنان فليس منا من في ثناياه ما لا يشكوا الاحتراق .. إنني والله أحبك وكلّما زاد صمتك زاد حبك البرّاق .. أبحق أنت قاسية أم أنني فقدت بعد حبك الأذواق .. عيناك نور ونار وثغرك قاموس أرجع إليه عند الإخفاق .. أنفك سيف يقطّع كبدي ونظراتك سواط يضربني في الأعماق .. حياؤك جنة بها رحمة تأوي إليها من طال به الفراق .. خلقك مكتبة، القارئ منها غائص في عمق الأعماق .. خطواتك سحر يعمي الناظر ويُسحر إثرها كل عاص وعاق .. حبك داء نزل بفؤادي فاستحال الدواء وغاب الترياق .. حبّك ملك لا يورث ولا يوهب ولا يباع غاليا في الأسواق.. حبّك نرجس، آمن، غال، محروس ومحميّ فلا يطمعنّ السرّاق .. كل ما فيك مقامه رفيع، أروع وأنصع من بياض ثلج وأوراق .. فلتكملي معي ما ابتدأت لتكوني أبهى امرأة على الإطلاق .. فقط تكلمي وجاوبي وخلصيني دون خجل ولا إشفاق .. أصدعي واجهري فما ردّك بكفر عقابه شاق .. ثم إنني والله أنتظر إلى أن يأكل الدود العظم مع الساق .. ولا تحسبي صديقتي أن الوقت باق، فلا بدّ من يوم فيه إلى الله المساق.

آه آه : أصبحت حياتي جحيما خاصة عندما أذكرها، أنام فيختلط نومي بكلام مبهم المقصد، آكل الحلو والمالح، لكن عند ذكرها يصير كل شيء أشبه بتراب.. أخشى البوح بمكنونات تجاهها للزملاء فأصبح محلّ سخرية، لاسيما وأن المخلص في حبه للأنثى صار له عند المحبّين المعاصرين اصطلاح يُنعت به كل من تكلّم عن، أو مع الأنثى بنوع من الجدية الممزوجة بالمجاملة.. التكتم هنا والتكتم هناك.. أمر قد يجرني إلى الهلاك.. ربما قد يكون هناك من أحكي له.. آآآ نعم أمي..

أكلّم أمي وأبلّغها حكايتي.. وتمّ ذلك.. لكن أمي ترى أنني لم أنضج بعد للحديث عن أمر مماثل .. بعض من مقربيّ يرون أن العيش دون قيود، خير من الارتباط بأنثى واحدة تضيّع عني لذّة الشباب.. حبيبة ترى أن العلاقات تفسد العلاقات.. وإلى أين المفر.. نعم إلى الله الرجعى ..

تتكرر اجتماعاتي مع هدى.. وما أخرج به كحوصلة يومية، أنها تفوقني ذكاء، ثباتا، التزاما، فصاحة، ثقافة، إلماما بحنايا جل المواضيع.. وأغدو دوما كما لو كنت في زيارة لجدتي، رغم أن هدى ولدت بعد ولادتي بما يربوا عن السنتين..

نظام عمل دقيق، أو على الأقل كان دقيقا وقتها، كسب الطرف المتحرّك، ثم كسب رضا الطرف الثابت.. سماع عبارات الإيجاب والقبول من هدى.. حتى لا تذهب محاولاتي مع أهلي سدى..

أسابيع تمضي.. ونحن على حالنا تلك.. لقاءات الرواق نكتفي بها.. واللقاء دوما يليه بعض النقاشات حول طريقة وعادات عائلتهم فيما تعلق بحفلات الزفاف، خطوات ذلك.. وما أثار استغرابي هو امتناعها عن لقائي يوم الاثنين والخميس بداعي الصيام.. ولها الثواب إذ أنني اعتدت صيام ذانك اليومين..

فترة امتحانات عرّجت على الأجواء.. وانقطع الناظر بالنظير.. وبعدها لابدّ من عطلة يتربع فيها الربيع على كل الربوع.. وقبل السفر، كان لابدّ من حسم الأمر.. وقبل يوم من السفر، نصبت الكمين عند باب المعرض اللصيق بالجامعة، وطلبت منها بعض الدقائق بحجة التوديع غير أنني طلبت أكثر من ذلك.. طلبت رقم الجوال الذي يصلني بها بعد الترحال.. سألتني قائلة:

- ماذا تريد أن تصنع به، بعد أن فشلت أو بالأحرى لم تقدر ولم تسطع إقناعي ندًّا لند
- قلت أريد التواصل للتواصل فقط..
- قالت وما بعد التواصل؟

- قلت: وصال..
- قالت: بكل جدية، ما الذي تصبوا لبلوغه بعد كل هذا الأخذ والردّ..
- قلت: أصبوا لِأن أقوم من متكئي ذات صباح، فأفتح عيني لأجدك بجانبي تتقلبين، منتظرة صحوتي، فإذا رددت حلاوة قولك، قمت تعدين فطوري، أفطر وأحمد الله بينما تصففين ملابسي أمام أنظاري، أختار منها ما وقع اختياري عليه، فتقومين إلي بعدها تسوّين اعوجاج قميصي وتمسحين على شعري، وتنطقين كما ألفت نطق: رافقتك السلامة وحفظك المولى وحفّك ملك من كل حدب وصوب، أخرج مغمور بسعادة دينية دنيوية.. أخرج إلى العمل، أجتهد وأبدع فقط لأجل أن يقال زوج مواظب مثابر يطعم أهله ويسقيهم حلالا..

أعود إلى المنزل منتصف النهار فأجدك قد زيّنت مائدتك بأشهى ما تتقن أناملك، أجدك عند باب المطبخ جالسة على كرسيّك الذي أحببته بحبك، أجدك تراقبين عقارب ساعتك التي تدق بقلبي قبل أن تدق بساعد يدك.. تقومين ويداك في جيوب مئزر الطبخ.. تمشين نحوي خطوات قلق وحيرة تولّدت من طول انتظاري، حتى إذا دخلت جريت نحوي تجرّين قدميك على البساط قائلة ما هذا

التأخر؟.. أجيب أن الشغل لن يشغلني عنك دوما لكنه قد يجعلني أتأخر قليلا.. تتنهدين وتحدقين إلي بنظرات ثاقبة يُفهم منها تعبيرك عن مكتوم ساحر، أرد لك بالمثل قائلا: وأنا أيضا.. تضحكين ضحكة فرح وقرح مختلطين.. تأخذين معطفي نحو مكتبتي.. أتوضأ ونلتقي على طاولتنا المستديرة.. طرفان متساويان متوازيان.. تسافر ملعقتي لفمك.. وأستقبل مبعوثك بأسناني.. نتناول ما فتح به الفاتح.. وأعدّ لك جرعة من الشاي.. أفرغ بها عبء العمل وهمومه.. أصلي بك ظهر يومنا ذاك.. وأخرج للعمل مغمور بسعادة دينية، دنيوية، أخرج للعمل فأجتهد وأبدع فقط ليشار إلي بالبنان.. زوج ينتقي قوت يومه بالجد والكدّ.. أنهي مسائي ذاك وأنا على أحرٍّ من الجمر لرؤية محيّاك في المساء فهو يزداد نورا كلّما غابت شمس ذلك اليوم: أنهي شغلي وأعود مسرعا إلى جحري فأجدك في بهو البيت ترتشفين بشفتيك قهوة أشمّ رائحتها عند خروجي من مكتبي، تقومين من مقامك وتنطقين كما ألفت نطقك أن عودة ميمونة وأردّ: " إلى زوجتي المجنونة "، أتوضأ وأصلي عصري ثم أجلس بقربك نتناول أطراف الحديث فأحكي وتحكي عن أبرز أحداث يومنا ذاك، تقومين بعدها فتوهّجين أنوار البهو وتحملين طبق القهوة وتغدين نحو مسرحك،

أبدأ بمطالعة كتبي أو أخط رواياتي، أنهي عملي المتعلق بالغد الموالي، أسمعك تحضرين العشاء وضجيج الأواني يتخلله صوتك الحنين الذي يشدوا ما علم أنني أفضل سماعه، أزداد راحة وأحسّ أنني فعلا دخلت عالما ذهبيا، أصلي بك المغرب ثمّ نجلس أمام شاشتنا العملاقة التي حلمت بها منذ طفولتي، نشاهد سلسلة من مسلسلاتك المسلّية بالنسبة لي، ثم أنتزع منك جهاز التحكم انتزاعا للتعريج على بعض قنوات الأنباء البحتة، ثمّ نتّفق على برنامج أو فلم نشاهده سويّة، حتى إذا فرغنا منه وتفرّغنا تصطحبينني نحو منظرك الجميل، إلى مائدتك التي حاولت مرارا تكرارا فهم طرق إبداعك فيها، وتتكلل محاولاتي بالفشل أمام أطباق كلّها تأخذ شكل إسمي أو تاريخ مهم بالنسبة لنا..

نتناول عشاءنا، ونقرأ فاتحة الكتاب ثم تقومين للصلاة معي، الشاي بعد الصلاة سنّة حميدة، تزيدني منك قربا، وتملأ عيني بالنظر إليك والتمعّن في شخصيتك، فإذا تعبت ارتميت وسط حضنك لأنام نوم الصبيّ وكلّ يوم كيومي هذا حتى يشيب رأسي ويعوجّ ظهري ويشكوا فمي فراغا من القواطع والأنياب..

عند إنهائي طموحاتي كانت عيناها قد احدودبتا وضاقتا كأن العلل كلها سكنت جسدها، ثم تنهّدت كما لو كانت هي الحالمة،

وأحسست أنها خرجت للتو من نفق مظلم، ثم نظرت إلي تلكم النظرة الثاقبة التي أخلطت حساباتي وقالت: أما الحلم فهو حقّك، وأما الغناء فلا يعنيني، وأما انتزاع جهاز التحكم من يدي غصبا فلن تستطيع له طلبا، وأما رقمي هاتفي فلتكتب ....

أخرج هاتفي من جيب معطفي كما لو كنت ساحرا متمرسا وأكتب بكل حذر وأحرص على كل رقم، عند انتهائي أمليت عليها الرقم فقالت هو ذاك، فقلت هل أقوم بإشارة لكي تتعرفي على رقمي عند دخوله كمتصل لديك؟ قالت كلا إن معي ربي سيهدين، فقلت إذا: كفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا..

لم نزل على حالنا تلك، وهي تتأرجح يمينا وشمالا كما لو أنّ مفعول الحلم والطموح لا زال ذا أثر، يجول بخاطرها، وأنا أنتظر ذهابها بحكم أن سبيل التواصل الآن متاح، ذهبتُ وذهبت وسافر كلانا لأهله ضاحكا مستبشرا، حلّت العقد وفكّ الأسير من أسره، زال الخوف والهلع، اضمحلّ الخجل ودُسَّ وسط خردوات الإفصاح والمناظرة، تكدّست المشاعر كما لو أنني منفرد بالإحساس والشعور في الكون أجمع، وذاب ما يمكنه الذوبان في سويداء قلبي، وأمسيت شارد الذهن مبعثر الهندام أسير بخطى متثاقلة نحو المحطة، حاملا أثقالا مع أثقالي، أجر قدميّ، وحذائي شبه

المنزوع يصدر ضوضاء خلفي، أمسك هاتفي كما لو كنت أهاب سرّاقه، هل أكلمها في الطريق؟ لا ستكون إشارة البثّ ضعيفة.. عندما أحط أولى قدمي عند حلول وقت العشاء وأفول شمس اليوم سأتصل بها بحجّة الاطمئنان عليها.. حكمة بالغة فما تغن النذر.. بعد ذلك لم أشعر بأي شيء من رابح إلا عند قدوم القابض يسألني: بشار..بشار؟؟؟ لا لا يا أخي أنزلني هنا فقط.. تجاوزت خريطة رحلتي بحوالي الخمسون كيلومترا.. الساعة الآن الثالثة صباحا.. آه.. نمت نوم الجاهلية..

عند بزوغ الشمس من مشرقها.. قصدت أهلي وأنا بحاجة إلى مكالمة هاتفية للتأكد من الرقم أولا، وللتأكد من سلامة نور ثانيا، ولبدء لعبة التعارف والتجانس.. أجلس مع أمي في المطبخ تعدّ لي وجبة استثنائية لسدّ جوعي بعد هفوة النوم تلك، وقد أخبرتها بذلك فهي مستاءة لهذه الهفوة، أصابع يدي العشرة تمسك الهاتف، وتتشارك في الضغط على أزراره، تجهيز الرقم في مرمى الاتصال، واحد، اثنان، اتّصل.. لحظات من الاستمتاع بنغمة انتظار جميلة.. يردّ المستقبِل: السلام عليكم.. صوت رجل، صوت رجل.. ألغي الاتصال بالضغط باستمرار على زر الإلغاء لدرجة لم يعد الزر لحالته الطبيعية، أمي تسأل: ما الذي يجري؟

لا لا مجرّد خطأ.. وإن يكن، تسأل عفوا وعذرا صح؟ .. بلى بلى يا أمي كان يفترض بي الإشعار بأنني أخطأت العنوان.. أرحل بها إلى موضوع آخر أخرجها من موضوعي لأنها تستطيع اكتشاف الأمر سريعا...

أكلت مسرعا، وخرجت مهرولا، أعدت الاتصال فإذا به رجل، لكنته مألوفة:

- قلت: السلام عليكم.
- قال: وعليكم السلام والرحمة والبركة والإكرام على الدوام، من المتّصل؟
- قلت: قد أكون مخطئا من الوهلة الأولى، ولكن لا حرج في معرفة من أي ولاية تخاطبني لو سمحت؟
- قال: من ولاية كذا.. وأنت ؟_ ويحي.. إنّه أبو نور الهدى_
- قلت: من الصحراء.
- قال: ماشاء الله بنيّ.. هاه هل تبحث عن شخص بالنواحي، قد أساعدك على إيجاده؟
- قلت: أبدا يا سيّدي، ولا أظن أنني قد أخطأت العنوان فانا أبحث عنك تحديدا..

- قال: تبحث عني؟ إذا قدّم نفسك، وأعطني من موضوعك نصيبا لترفع عني اللبس والغبن.. _ يضحك _
- قلت: أنا رابح، من جنوب الجزائر الغربي، طالب جامعي بالجامعة الإسلامية بولاية قسنطينة..
- _يقاطعني_ آآآ السي رابح.. سمعت عنك الكثير ولم ألق منك زيارة تتوّج ما سمعته، بل وتبرّر ما سمعته..
- قلت: ربّما لم أحظى بمشيئة الله للقياك، وحتما سألقاك..
- قال: هاه .. كيف حال أهلك؟
- قلت: في نعم لاتعدّ ولا تحصى..
- قال: هل لك كلام تودّ قوله أم أنك اتصلت فقط؟
- قلت: لا لا في الحقيقة أردت أن أشكر لك حسن التربية، وحسن التوجيه، فأنا بكل صدق وأمانة قد طلبت منها رقمها الخاص وقد أعطتني هذا الرقم، وهو خير من رقمها والله.. ربّما وفقني الله بغير أن أشعر لمكالمتك..
- قال: ولكن يابني.. ربنا عزّ وجلّ أمرنا بإتيان البيوت من أبوابها، وقد أتيت وأدركت العائلة مجتمعة وتعرّفت على أعمامها.. قد تكون لك فكرة عن أي أناس تتكلّم..

- أقاطعه.. أجل يا سيدي أجل.. لا أظن أنني كنت سأزيغ عن درب العقلاء.. ولولا أنني تكلمت معها عن موضوع الزواج لما أُعْطِيتُ رقم هاتفك.. فلتسمع مني هذه الجمل.. واعذرني إن شاب كلامي ركاكة وخلط مفاهيم لأنك تدرك يقينا أنها المرّة الأولى التي أخاطب فيها أب فتاة أودّ خطبتها.. نيّتي صادقة مادام الخلق والدين متوفران فيكم، والله شهيد على ما أقول.. سأبذل قصارى جهدي للظفر بها ولكن لي رجاء من المولى سبحانه ثم منكم، لا تفطروا قلبي باستبدالي بآخرين..
- يقاطعني.. نل رضى والديك تنل قرب الفتاة.. ودع عنك التصرفات التي قد تجرّ بي وبك إلى منعرجات السفاهة والدناءة، سأصبر على كلامك ووعدك عام وافي الشهور والأيام، ومالم يخطبها والدك، لن تحظى بها مادمتما حيّين..

جفّت الأقلام ورفعت الصحف.. ولنا اتصال في قادم الأيام..

عند إنهائنا الخطوبة غير الرسمية، اللامعترف بها، أحسست لوهلة أنني ارتكبت معصية بأسمى معانيها، كيف لا وما فعلته قبل قليل سابقة من نوعها في عائلتي من جدها الخامس والعشرون وصولا إلى أبي..

أغلقت هاتفي تماما.. تراجعت وخارت قواي.. صليت واستخرت مولاي.. واعتدت نوم الليل مع النهار.. هو هروب من واقع مرير.. لكن كيف لمن هو في سني أن يتكلم مع وليّ فتاة ويعده بخطبتها بعد عام واحد فقط؟ أوليس من قبلي قد استغرقوا أرباع بل وأنصاف القرون للتلفّظ بمفردة الزواج؟.. أليس هذا فعل غير محسوب العواقب فعلا.. ألطف يا لطيف ..

الأسبوع الأول نوم.. والأسبوع الثاني جمع لبعض المدخّرات لإنهاء الموسم الجامعي دون استدانة.. والأسبوع الثالث فزع وخوف من ما هو بانتظاري بالجامعة، كان تخميني أن والدها سيصطحبها عند عودتها للجامعة ولذلك لم ألتحق خلال الأسبوع الأول من استئناف الدراسة..

السبت الموالي.. أشدّ الرحال وكل ما هو موصول بعرق من عروقي يرتجف.. كأنني مطلوب ومبحوث عني في المحاكم.. وعند دخولي صبيحة الأحد إلى المدرّج تنظر إليّ الأخت نظرة منتصر على أرض الوغى، والسخط الممزوج بالحيرة قد غطيا وجهي.. لا أردّ أي تحية، ولا أقوم بأي حركة من حركاتي البهلوانية تلك.. جثّة هامدة تبعث فيها الروح عند انتهاء أوقات الحصص.. تخرج للأكل والصلاة وتعود للجلوس.. حتى تفطّن

لحالي كل أساتذتي فهم يسألونني باستمرار ما الذي حصل خلال العطلة؟ وأجيب فقدت جدي وهو مقرّب مني.. تجنبا للدخول معهم في نقاش طويل لا أود دخول حيثياته أبدا..

عند خروجي من الجامعة، تلحق بي الفتاة، وما كان محظورا أضحى ميسورا.. هل حقا فقدت جدّك؟

- لا أبدا، ولكنني سألتك رقمك وليس رقم أبيك، ولست بحاجة لشخص يحدّد المواعيد نيابة عني، ولست مراهقا لتمريري على تجاربك الصبيانية..

-تقاطعني: أو لست القائل أنك تصبوا لِأن تقوم من متكئك ذات صباح، فتفتح عيني لتجدني بجانبك أتقلب، منتظرة صحوتك، فإذا رددت حلاوة قولي، قمت أعدّ فطورك، وأصفّف ملابسك.. وما إلى ذلك؟

-فعلا.. ولكنني أشق طريقي خطوة بخطوة وحين يصبح لعائلتك محلّها من الإعراب..

-تقاطعني.. اسمع إذا أقل لك خلاصة الكلام: لعائلتي دائما وأبدا محلّ من الإعراب، والخطوة بخطوة تلك.. قم بها بعيدا عني.. أمّا أنا فجاهزة للبدء مباشرة في المضمون دون التمثيل.. ومعرفتي تكون بعد معرفتك والديّ لا قبل ذلك.. رقم

الهاتف معك.. إن كنت جازما ومقبلا فأقبل كما يقبل جمهور الخاطبين، وإن كنت لاعبا، فاللعب فاق قدرتك على المجابهة..

وتغدوا ثائرة تهزّ مرفقيها، والمارّون ينظرون إليّ تارة ثمّ ينظرون إليها أخرى والتارة الثالثة ينظرون لبعضهم بعضا متحاورين وحتما كان السؤال: ما بهما افترقا بعد أن التقيا؟.. وأجيبهم صامتا حينها بعبارة: " فرّقتنا قاعدة كن أو لا تكن "..

عدت إلى غرفتي متسائلا عن الخطوة القادمة.. انسحاب مادامت الأمور لم تخرج عن سيطرتي أم رمي المسألة إلى الأم لتحتضنها العائلة أجمع.. والانسحاب أرحم من إقدام بدون سلاح ولا كفاح..

تمضي الساعات داخل الجامعة أوقات الدراسة والبحث كالقرون.. وتتسارع الدقائق أوقات التفرّغ كالثواني بل أقلّ.. وتمضي الأسابيع تتدافع تدافع السجناء عند فتح أبواب الزنزانات.. والمصير مجهول..

أمي لم تصارح أبي بعد بالفكرة.. فهي واسطتي بحكم العادات والتقاليد، فلا تفتح مثل هذه الحوارات بين الأب وأبنائه إلا بالواسطة، ولو لم تكن كذلك لكنت قد رافقته لبيتها..

قبل شهر عن استيفاء الحجم الساعي العام.. أستقبل خبرا مفاده رفض أبي الرفض القاطع للفكرة.. وحين تسمع الرفض المبدئي فلا يمكن بأي حال من الأحوال قلب الرفض قبولا إلا إذا كنت صاحب معجزة.. فأبي يرى ما لا أرى أضعافا مضاعفة.. وله ثلّة من مقرّبيه لابدّ من استشارتهم في الموضوع بحكم العادة والاعتياد.. ورفضوا كذلك بحكم بعد المسافات واختلاف الأنماط والعادات، وتخوفهم المسبّق من تيتيم البنين والبنات.. عجب عجب، حتى على مستوى عائلتي ألقى العراقيل.. كيف الصنيع إذا؟..

استقرّت في ذهني فكرة تقضي بعدم ملائمة الوضع لمثل هذه الطموحات، والمبتغي زواجا، له من الإمكانيات ما ليس لمبتغ علاقة حب عابرة، طالب العلم لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتيه وسط مسالك وعرة تقتضي التفرغ وحسن التفكير.. تدوم ذهنيتي هذه خلال الشهر المتبقي من آخر سنة من الجامعة أو على الأقل في مرحلتي الأولى منها.. أعود إلى مسقط رأسي كما لو أنني لم أر فتاة تدعى نور الهدى أبدا.. وعاد رابح إلى متجره يعيش حياة تبدوا سعيدة أيما سعادة.. غير أن المكتوم أدهى وأمرّ..

أزاول نشاطاتي بصفة طبيعية.. وعند ذكراها تتعكر صفوة مزاجي كما لو كنت قاتلا يتكتم على جريمته.. أمي تسألنني صورها لتراها.. وإخوتي يمازحونني بالعاشق.. أصدقائي يتساءلون دوما كيف حصل الأمر.. وكلّ من وجد الطريق إليّ في الموضوع سخر من محاولتي..

هناك عدّة طرق من التحفيز.. تحفيز بالإيجاب وهو أن تثني على شخص وتمدحه وتشجعه وتكرّمه.. وهناك تحفيز بالسلب كأن تشكك في قدراته، تثبّط معنوياته، تقلل من انجازاته.. تصغر في عينيك عظام انتصاراته.. وهكذا دواليك..

يكلّفني أبي تكليف تشاور ونقاش بإتمام بعض الأشغال بالمنزل الجديد الذي نحن بصدد بنائه.. واخترت مداومة الليل بحكم الحرّ والارتباط بالعمل كأجير خلال النهار.. وكلام الليل كلام.. ودوام الليل مجمله هيام.. وذكريات الليل كلّها سقام.. أفكار الليل سهام.. ونسائم الليل منام.. هدوء الليل يضمن الإلمام.. وبناء الأفكار في الليل يجعلك مقدام..

يختلط الحابل بالنابل خلال تلك الليالي واكتشفت شخصيتي الجديدة.. اكتشفت رابحا آخر لا يحبّذ إلا أن يكون رابحا.

خارطة طريق رسمتها خلال ذلك الأسبوع الليلي، الاستعانة ببعض معارف أبي والذين قد يكونون أصلا مستشاريه، وعند الخلاص من هذه الخطوة، معاودة الاتصال بأب الأخت لكسب بعض الصبر من ذويها على تفريطي، وعند عودتي للبيت ليلا بعد عمل شاق دام لساعات متأخرة .. أصبت بأرق لم أجد له حلا سوى قلم وورقة ومباشرة الخطة، حددت المجموعة المرجوّ مراسلتها، ثمّ كتبت لهم نص المكتوب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد ابن عبدالله خير خلق الله أجمعين وبعد:

تحية طيبة مباركة أزفها إليكم.

أوّل ما أبتدئ به أبيات تحضرني للإمام الشافعي رحمه الله:

الناس بالناس مادام الحياء بهمُ والسّعد لاشكّ تارات وهبات

وأفضل الناس مابين الورى رجل تقضى على يده للناس حاجات

لاتمنعنّ يد المعروف عن أحد مادمت مقتدرا، فالسّعد تارات

واشكر فضائل صنع الله إذ جعلت إليك، لا لك عند الناس حاجات

قد مات قوم، وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات.

أحيطكم علما أنني في هذه الخطوة التي ربما هي الأولى من جنسها وهي بكل تأكيد عمل جريء جدا وغير منتظر، قد أكسر كلّ الحواجز بيننا لايصال جزء من فكرة، على أن تتوسعوا فيها بقدر سعة خيالكم ولا حرج باستعمال الخيال، فطرحي هذا قد فاق الخيال، سامحوني واعذروني فحاجتي تبرر وسيلتي..

الرسول الكريم يقول ".. والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه." وها أنا ألجأ إليكم شارحا موضوعا استعصى عليّ حلّه، بعد محاولات عديدة كادت تكون فاشلة، وتفصلة الموضوع موجزة كالتالي:

لي صلة بفتاة لأكثر من سنة بحكم أنها زميلة دراسة منذ العام الجامعي الأول، وقدّر لها الله أن تفهم معاني: " العجار"، " الحياء والوقار" و" دار الضياف " و" قداسة أب الزوج "، والملخّص أنها فهمت كلّ ما يشترطه أمثالكم في عقود القران.. وشاء الله أن تقبل بكافة هذه الشروط دون استثناء ويزيد عنها

الكثير.. وشاء الله أن يجيب أباها بعبارات القبول لكن بعد رضى الوالدين طبعا وهو شرطه الأساس.

رفض حبيبكم _والدي_ كان بحجة بعد المسافات وقد تعلمت على يده وحفظت أبياتا أخرى للشافعي يقول فيها:

ما في المقام لذي عقل وذي أدب من راحـــة فدع الأوطان واغترب

سافر تـــجد عوضا عمّن تفارقه وانصب فإنّ لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف المـــاء يفـــسده إن ساح طاب وإن لم يجـر لم يطب

والأسد لولا فراق الأرض ما افترست والسهم لولا فــراق القوس لم يصــب

والشمس لو وقفت في الفلك دائمة لملّها الناس من عـجم ومن عـــرب

والتّبر كالترب ملقى في أماكنه والعـــود في أرضه نوع من الحـطب

فإن تغرّب هذا عزّ مطلبه وإن تغـــرّب ذاك عزّ كالذهـب. وقد أضيف على قوله:

والإحسان جزاء المحسنين ولو أثار بُعد المحسن مستحيل العجب

كذا الصدق والحياء معْ وقارٍ ضف الثبات و اعتلاء أعالي الرتب

وقس إن شئت المسافة وزد كلّ شبر ما ألفتيه أمامك من شهب

وضاعف الجمع واستدر وقل حب الفتى يستحق جودا وحسن نسب

إضافة إلى حجج وأمور أخرى أعلمها ويعلمها، رأيت أنها لا تعتبر جازمة مثلما يريد أن يجزم بها الأمر، ولا زلت لم أهضم رفضه بعد.

وما أبدأ به الختام قوله تعالى" وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا" صدق الله العظيم.

ما ارجوه منكم هو إقناعه بأن رابح لا يريد سوى نور الهدى، وليفهم عنكم مني أن الأمور تمشي وفق ما يحبّ أن تمشي عليه، كأنه يسيّرها بنفسه، لا مجال للتخوّف من غرابة الفتاة وبعد موطنها بل على العكس فهي نقاط ايجابية بالنسبة لي..

مستعد تمام الاستعداد للإجابة على تساؤلاتكم وانشغالاتكم فيما تعلّق بالموضوع، ومستعدّ لتقديم كل ما يطلبه مني ماديا ومعنويا، لكن صدقوني وسامحوني فلست مستعدّ أبدا لأخرج خائبا مهزوما من معركة أنا من أقامها وأنا من دخلتها خالي الوفاض، ظنا مني أنني سأجد الدعم من والدي بسهولة وسلاسة ..

والد الفتاة موافق مسبقا ومبدئيا، وأنا والفتاة قد اتّفقنا على الصغير قبل الكبير، لم يبق إلا أن يبارك والدي هذه العلاقة ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.. انتهى المضمون.

سلّمتهم أوراقي وكانوا ستة رجال من أعلام قريتي وضواحيها.. وبعد أيام بدأت أستقبل منهم اتصالات بعضها معارض للفكرة ساخط من الرسالة، وبعضهم ناصح أمين، والبقية محايدين لا يريدون دخول هذه الفوضى.... تمّ قبول طلبي أخيرا .. فرحة لا يمكن أن تضاهيها فرحة.. أتصل مباشرة بالطرف الآخر والآن أتكلم معه من منطلق قوة لا من مركز ضعف:

- بدأت: السلام عليكم.
- قال:وعليكم السلام، أهلا بك يا بني.. كيف حالك؟
- رددت: بأفضل الأحوال.. وأنتم؟

- أجاب: نحمد الله ونثني عليه الثناء الحسن.. مرحبا
- قلت: والله ارتأيت أن أسأل عنك وعن العائلة الكريمة فحسب.
- قال: شكرا، نحن في صحة وعافية وستر.
- قلت: جميل، لا أطيل عليك.. شكرا لك ودمت في رعاية الله
- قال: حسن.. دمت في رعاية الله.

لم أفهم كيف أصغ له الطرح حينها.. لذلك لم أنه ما ابتدأته.. رمضان يحلّ بعد أسابيع من ذلك.. الصيام مع العمل، قيلولة طويلة إلى مشارف أذان المغرب، ثم الغدوّ نحو بيوت الله لقيام التراويح.. ليلة من ليالي رمضان يتّصل رقم جديد بينما أسهر رفقة بعض الأصدقاء.. لا أعيره اهتماما.. يعاود ويعاود الاتصال.. أجيب وإذا بها فريستي..

- نعم؟
- نعم.
- من أنتِ؟
- تقبّل الله صلاتكم وقيامكم.
- اسمك " تقبل الله صلاتكم " ولقبك " قيامكم" ؟

- بالضبط.
- من أنت؟
- نور الهدى.
- أهلا وسهلا بك، مضى وقت طويل أه..
- صحيح، وكان لابدّ من إطالة الوقت قبل المكالمة.
- ولم؟
- لحفظ الحدود يا ودود.
- لا لا لست ودودا.
- كنت ولازلت.
- مبالغة هذه.
- بل هي حقيقة.
- كيف وصلت إلى أرقام هاتفي..
- قرصنة على أعلى مستوى.
- ولم؟
- لأطمئنّ عليك فقط.
- شكرا أنا بخير، وسط أصدقاء لا يجيدون سوى المزاح ليلا والمثابرة نهارا ورمضان وذو القعدة عندهم سواء..
- أدام الله ودّكم.

- شكرا، سأتصل بك غدا بعد الصلاة مباشرة إن كان بالإمكان، فأنا اللحظة مشغول نوعا ما.
- ربما نعم.. وربما لا.. فأنا مرتبطة بصلوات وقراءة قرءان لذلك إن صادف واتّصلت ولم أردّ على اتصالاتك فاعذر حالي..
- بالطبع.. شكرا على الالتفاتة الطيبة..

سئمت كلام الإنشاء ولم أتّصل بعدها إلا بعد أن طلّ ذو القعدة، اتّصلت بها من حيث اتّصلت، وكان الخطّ لأختها الأكبر، فقلت إنني رابح وأنتظر من نور مكالمة، وقد عقدت اتفاقا مع والدي، كردّة فعل عنيفة منه على إرغامه قبول زواجي من فتاة " برّانية " مفادها أنني أموّل كلّ مصاريف الخطبة و"الخاتم" وما إلى ذلك من إجراءات الزفاف، وقد امتهنت بعدها حرفة الفلاحة سعيا لجمع مبالغ مالية تفي بالغرض، وكان الاتفاق مزيّفا بعض الشيء ولا فاعلية له، فقد كان والدي في كلّ مرّة يقدّم تمويله للعملية، يساعد ويضيف كلّ ما من شأنه إضفاء طابع الرحمة الأبوية من أب لابنه، ربما سيكون الوقت الملائم لبدء تلك المراحل، بعد الخلاص من ظرف الدخول الاجتماعي، تتصل بي نور ذات قيلولة وأنا أغطّ في سبات عميق تسأل عن موعد التحاقي بالجامعة، وهي

ذريعة بكل الأحوال.. سألتها عن أهلها فقالت: الحمد لله، بتلك الطريقة التي توحي بتعكّر كل صفوة، فسألتها أن تحكِ بعضا مما يجري، ترفض ذلك للوهلة الأولى ثم تجيب:

- قدم أحد أقارب أبي وهو ابن عنه، قدم إلى أبي الأسبوع المنصرم، ودخلا في نقاش ساخن انتهى بتباعدهما وافتراقهما بعد قربهما، هذا القريب يخاله الناس أخ أبي من شدّة قربهما ومداومتهما بعضهما البعض..
- ولكن ما سبب النزاع.. أراض، أموال..؟
- لا أبدا.. بل سبب نزاعهما امرأة..
- امرأة ؟؟.
- نعم جاء لخطبتي ولم يعجبه رفض أبي بحجة أنك قد قطعت له وعدا بالقدوم.. أريد أن أقول لك أمرا مهما وجريئا وأخيرا..
- نعم تفضلي..
- رابح.. اجتمعنا على خير واصبوا لأن نفترق على ما هو خير.. إن كان كلامك مع أبي لم يكن محسوبا أو مكلّف أو صعب المنال، بلغة أدق، إذا لم تكن لك أي رغبة جدية في الزواج.. لا حرج في ذلك فقط اسحب كلامك،

ولا تحدّثني عن الظروف والتكاليف وما إلى تلك الأعذار.. أريدك أن تسحب كلامك وتنسحب، واترك ذكرى جميلة بأقل تكاليف وأضرار، لا أرغمك على القدوم فذاك قضاء وقدر، ولكن فكر جيدا في كلامي وكن مسؤولا وكن متعاونا، أنت لا زلت طالب، ولا زال أمامك سنتين إضافيتين لمباشرة وظيفة ما، مالم تمض سنين أخرى باحثا عنها.. لذلك اسحب كلامك وكن ساعدا في إصلاح ذات بين، بين أبي وأخيه..

- حسن.. سأفكر في الموضوع.. وأتصل بك فيما بعد..
- ستجدني شاكرة لصنيعك..

عندما غادر صوتها أذني، أحسست بذلك العبء الذي أحمّله لكلتا العائلتين، وتساءلت أنا فيما أصنع، وهل ما أصنع يستحق هذه الجلبة، وهل ستكون نتائجه مشرّفة أصلا أم زواج مثل كل زواج عصري.. زواج صيفي.. وطلاق خريفي..

لا أفهم سبب تفاقم المشاكل عند كلام أحدنا على الزواج.. فلو تبحث في كلّ زوجين تلاقيا فعليا.. إلا وجدت لهما قصة تبدوا لك غريبة بعض الشيء، لكن لو تمازح أهلك بكلمة الزواج، سترى فعلا تلك القصص نصب عينيك، أليس الأجدر أن يكون أمر

الحلال أيسر مما هو عليه الآن، إذا أكرمك الله وتجاوزت عقبة عائلتك، ستجد عقبات أخرى من الجهة المقابلة.. لا بد من.. لاتنس كذا.. عهدنا عامة الناس فعلوا كذا.. أتريد أن تغض الطرف عن كذا حتى نغدوا مسخرة أمام الملأ.. إملاءات شيطانية لا أصل لا في الدين ولا الاجتماع، ولا حتى كانت إنسانية المعالم، تزوج آباؤنا قديما، هم في الأرض والطائرات الحربية في الجو.. لا ذهب ولا مال وفير.. وقت حرب ضروس.. كيف فعلوا ذلك؟.. لماذا قلّ أن ترى شيخا دون أهل؟ لماذا آباؤنا ذوو وقار وحياء.؟ أجيب حسب ما أراه الأقرب للمنطق..

تغيّرت جلدة الرجال والنساء على حدّ سواء.. كان الرجل إذا أفصح عن رغبته في الزواج، كان إفصاحه ذلك وحده كاف لتبرير نضجه واستقامة تفكيره، ولا أدلّ على حسن مقصده هذا من عدم تدخله في شخصية المستقدَمة إليه.. وعند إيجاد أنموذج عن زوجة.. كان الرجال يدخلون صلب الموضوع مباشرة دون مقدمات.. حتى أن بعضا ممن فتحت معهم هذا الموضوع على هامش مواضيع ذات الصلة، يقسم يمينا أنه ما رأى زوجته إلا يوم أن دخل بها.. ثمّ أن نساء " الملحفة " والعجار"، لم يكن لها من قول أبدا في العملية الجمعوية، ليس احتقارا مني لها حاشى لله،

ولكن كان رأيها من رأي أبيها، فتجسّدت فيهم كل صور تطبيق الشرع الحنيف في العقود، وقد فصلت دور المرأة قديما في العملية، نعم وكان من المفترض أن تبقى تلك الخصلة سائدة مدى الوجود، فقد شهدنا على زيجات خالفن أمر أوليائهن.. لكن للأسف عدن إلى أوليائهن وعلى رقابهن أوزارا ليست ككل الأوزار، ولو ضحِكت قهقهة لكان يومها أشبه بيوم وفاة الرسول، ثم إن الفتى أيضا كان لابدّ له من استشارة أبيه، واقتناعه بإجاباته، نظرا لتلكم الخبرة التي يكتسبها الأب خاصة فيما يتعلق بمعرفته الأشخاص والعائلات.. لكن للأسف، أضحى الزواج أمنية ووصل الأمر إلى حدّ جمع الزواج والعمل والمسكن على أنهم حلم في عديد من المرات مع العديد من الأفراد.. قد عرّجت على هذا الأمر نظرا لكونه قد أشعرنني بالاشمئزاز من المتأخرين من الرجال.. وذكر ما عانى منه السابقون، الذين لولا تمسّكهم بالدين الحنيف لما كنا أصلا.. لم أسمع أحدا شكرهم على تيسيرهم تزويج بعضهم بعضا مثلما يشكرونهم على الفداء الروحي الذي ضحوا به.. رحمكم الله..

مسكت عصى الواقع من منتصفها وجلست بقصر قديم تذكرت فيه ما أسلفت بالذكر، بحكم الصورة التي أشاهدها أمامي مجسّدة

في حطام مساكنهم.. وقررت لآخر مرة سأقرر في الموضوع.. أنني سأمضي قدما دون هوادة ورجوع، فلن يغيّر الزواج من عدمه في العيش شيء مادام لابدّ من الرحيل الأزلي ذات يوم..

اتّصلت بأبو نور عندئذ، وأطلعته على اقتراب موعد القدوم وأجاب بسرور مستتر مرحّبا وحامدا الله توفيقه وتيسيره..

العلاقة تأخذ منحى آخر.. كان للعالم الافتراضي قسط من العلاقة فيه، حوارات وجداريات متباينة المبنى متّفقة في المعنى.. حديث وسمر، صور الأطفال ذلك ما يشغل أغلب رسائلها، تحلم بتربية نشء قويم غير ما نرى، تريد فعلا تجسيد مفهوم الزوجة ربة البيت، الأم.. اختلفنا كثيرا حول مسألة مزاولتها عملا، ورغم تبريرها المطلب بحجج المساعدة ماديا، نشر الفكر، الترويح وغيرها من الحجج الواهية بالنسبة لمجتمعي المحافظ.. نحلم بيوم الزفاف حتى أننا نراه مناما نعيشه ونقوم على واقع صعب المراس، واقع لا يعترف بالبساطة والعفوية..

اليوم: 05 مايو 2014، المكان: بيت أهلها والحدث أولى الخطوات.. فرحة تبكي عين قاسي القلب، وحمد يذوب على وقعه الجبال الرواسي، أبوين مستبشرين خيرا بعصارة تفانيهما وكدّهما، عائلتين متعجبتين من إصرارنا على الزواج، وأصدقاء متخوفون

من مصير مجهول أسوق إليه رقبتي، وبين تلك المواقف كلّها أضع الخاتم داخل بنصر يدها اليسرى، وتركيزي لم يكن مع تلك اللحظة بل كان يتمعن ملامس يدها، الغداء كان أشبه بثانية لهول المشهد، أبي وأبوها وأنا، على صعيد واحد..

الأخت أمست بقدرة القادر خطيبة، والكلام تغيّر من العواطف إلى ترتيب قادم المواعيد، أبوها يسألني سؤالا، كأنني لم أفكر فيه أبدا.. أنت الآن تزاول الدراسة، كيف تفكّر في كسب مبالغ باهظة.. نعم سيدي أنا بصدد مزاولة نشاط فيه من المشقّة ما ينسي لوعة الانتظار لقدوم يوم التلاقي..

أعود إلى قسنطينة وفور وصولي شرعت في كتابة رقم هاتفي على قطع ورق، ورحت أجوب شوارع المدينة الجديدة باحثا عن عمل ظرفي.. بعد ثلاثة أيام يتصّل بي أحدهم يبلغني أنه قد قبل طلبي وأنه يتوجب علي الالتحاق بالعمل صباحا عند السابعة.. فرحة أخرى تضاف إلى سجل الفرح الجديد.. عند وصلي صباحا اكتشفت أن منصبي يقتضي تنظيف بعض الأواني والمعدّات، قبلت الأمر تلقائيا.. وشرعت في العمل.. أياما قليلة يلتحق المالك الحقيقي للمحل بعد أن كان مسافرا.. يسألني سؤالا أجبت عنه كثيرا، طالب جامعي يمارس مهنة جانبية..لماذا؟. أريد أن أتزوج

يا عمّ.. لا أظن ذلك يا بني.. والله أريد أن أتزوّج.. يفاجئني أمام زملائي في العمل.. إن كانت نيتك صادقة صارمة فأنا من يساعدك.. سأمنحك تسبيقا لأجر عملك خلال سبعة أشهر.. ما يعادل مئة ألف دينار.. على أن ألتزم بالحضور والعمل بإخلاص.. حتما قبلت فهي بمثابة الهدية الربانية.. مكثت بضعة أسابيع في العمل المختلط بالدراسة.. ليزورني أبوها هناك رفقة زوجته، أكرمهما مالك المحلّ بكل ما لذّ وطاب عندما أخبرته خلسة أنهما مستودع كنزي وثروتي، وهنالك حدّدت معه تاريخ إبرام العقدين المدني والشرعي، واتصلت بأهلي وطرحت الموضوع للنقاش..

اليوم: 25 ديسمبر 2014، المكان: مقر بلديتها والحدث ترسيم الأماني.. رجعت وبيدي دفترا قلّ أن يوضع بيد أمثالي من الطلبة وضعيفي الدخل والشباب بصفة عامة..

خلال مداولاتنا الخاصة بتحديد مهر الفتاة، استدعاها والدها: كم من المال يرضيك تقويما لمهرك؟ قالت: رأي الجماعة، قال أبي أعطيناك كذا، قالت: كثير حتى صار تبذير.. أريد مصحفا شريفا في الحال يكتب على ورقته الأولى أنه تزوّج بي مقابل هذا المصحف.. تمّ ذلك فعلا.. غريبة الأطوار أنت يا زوجتي..

تمضي الأسابيع وتتوالى الساعات واللحظات.. كأنني أحلم.. كلّ من أعرفه يسأل عن موعد الزفاف، كأن مجتمعي يدفعني للزواج دون شعور.. مذكرة التخرج تقتضي تركيزا وتفرّغا.. العمل يقتضي جهدا ووقتا هو الآخر.. والدراسة لا بدّ لها من مثابرة وتفان، شهور أحسست شدّة صعوبتها لامتلائها بالبرامج وسهر الليالي، التعب نال منالله، الأحلام أفسدت قوامي وغيّرت بياض وجهي لسواد ازرورقت معه عيناي..

والدتي تحادث زوجتي هاتفيا دون علمي، أبي على اتصال دائم بأبيها، الزوجة المستقبلية تتصل بوالدي كلّ جمعة، اتصالات بالجملة تدوم ساعات، وكلّ المقرّبين من أبي صرّحوا بفخره بابنه وزوجته الجديدة، الأساتذة يباركون المجهودات سواء العلمية أو الاجتماعية ملخّصة في إقبالنا على الزواج.. جمع غفير يحضر معنا حفل التخرّج، زغاريد مقصدها لزوجين أكثر من إعلان نتيجة المذكرة.. حتى صاحب المخبزة يكتب فوق الكعكة دلالات خاصة بالزواج بدل تخرّج جامعيين..

أفكّر في الزواج بعد إفطارنا من شهر رمضان.. ولم يبق لرمضان سوى أربعة أشهر ويأفل نجمه ليحلّ محلّه شوّال.. اقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الجميع.. الكل يحضّر.. أبي تغيّر

مزاجه كثيرا من شدّة فرحه وحرصه على تقديم كلّ عروض الزواج على أتمّ وجه..

ستحضر معي صديقي عبد الله صحيح..؟

نعم حبيبي رابح سأحضر وأرقص وأزغرد وأقوم مقام الصحفي.. ألتقط الصور وأشارك العالم كله تلك اللحظات.. سأفرح وأقفز قفز الضفدع..

يكلمني رابح بين الفينة والأخرى يحكي مجريات التحضير وظروف شخص مقبل على الزواج.. حكى لي أنه اشترى القليل من روائع الملبس والحلويات وقصد زوجته لتهنئتها بعيد الفطر..

ثلاث أسابيع بعدها يتّصل رقم جديد على دليل هاتفي.. آ عمي فلان كيف أحوالكم، أتعبك رابح هذه الآونة الأخيرة أه.. يجيب بتقطع.. عبدالله.. الجنازة غدا بعد صلاة الظهر.. جنازة من يا عم.. رابح راح ضحية حادث مروري بعد عودته من مدينة " العلمة " مدجّجا بالأجهزة المعدات الخاصة بغرفة نوم نور الهدى..

ولكم أن تتصوروا هول المشهد يوم الجنازة.. انتهى وليته ما ابتدئ..